# الباب السابع

## النثر الجاهلي

يتضمن الباب السابع:

ـ تمهيد وسبعة فصول

- الفصل الاول: الخطابة
- الفصل الثاني: الامثال
- الفصل الثالث: سجع الكهان
- الفصل الرابع: الوصايا
- الفصل الخامس: القصص
- الفصل السادس: الرسائل والعهود
- الفصل السابع: الوصف والمحاورة

أ ـ تمهيد :

ذكرنا قبلُ أن الأدب الجاهليّ ضربان : شعر ونثر، وأن الشعر ينشعب إلى قصيد ورجز، والقصيد كان في العصر الجاهلي أكثر من الرجز مقداراً، وأعلى قدراً. وأمّا النثر فنمطان : نمط ليس من الأدب في شيء، وإنما هو لغةٌ يتخاطب بها الناس، ليترجموا أفكارهم ومشاعرهم، وليعبروا عن شؤون المعاش، وتكاليف الحياة، فنحن عن العناية به منصرفون. ونمط فنّي «يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فنّ ومهارة وبلاغة»

هذا الضرب الراقي من النثر هو الذي عني النقاد ببحثه، وتقسيمه، ودراسة كل قسم من أقسامه للوقوف على خصائصه، ومظاهر الجمال والإبداع فيه. ومن الحقائق التي لايحتاج إثباتها إلى دليل أنّ العرب في جاهليتهم كان لهم نثر أدبي ضاع معظمه لأسباب منها شيوع الأمية، وندرة التدوين، وميل الذاكرة عن حفظ المنثور إلى حفظ المنظوم. فما وصل إلينا منه لايسمح لنا بدراسة مفصلة تبين أساليبه واتجاهاته، لالقلّته فحسب، بل لما خالط نصوصه الأصيلة من نصوص ذكر الباحثون أنها وضعت في العصر الأموي، وصدر العصر العباسي. قال الدكتور شوقي ضيف : «إنّ مايروى عن هشام بن محمد الكلبي من أنّه رأى في بِيَع الحيرة بعض مدونات استخرج منها أخبار العرب فإننا لانستطيع الاعتماد على روايته، لأنه متّهم في كثير ممّا يرويه. حتى لو صحّت روايته فأغلب الظنّ أنّ ماشاهده من تلك المدوّنات لم يكن مكتوباً بالعربية، وإنّما كان مكتوباً بالسريانية التي كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام».

وإذا صدّقنا هذا القول أو نفيناه لم يكن للتصديق أو للنفي في درسنا النثر الجاهلي إلاّ تأثير واحد، هو الشكّ فيما بلغنا من قديم النصوص، لأنّ القدماء خافوا على نثرهم من عبث الذاكرة، فدوّنوه. واطمأنّوا إلى الشعر فلم يدوّنوه، لأنّ وزنه يعصمه من النسيان وعبث الأيام.

وربّما وجدنا في عناية الرسول صلّى اللّه عليه وسلم بحفظ القرآن وتدوينه دليلاً يثبت مازعمنا. فقد حرص الرسول أشدّ الحرص على كتابة القرآن وضبط قراءته، حتى عاتبه ربّه فقال : «لاتحرّك به لسانك لتعجل به، إنّ علينا جمعه وقرآنه».

## ب ـ أنواع النثر

وسواء أَمِلْنا إلى الثقة أَمْ إلى الارتياب فيما بلغنا من نثر، فهذا القدر يمكن تقسيمه إلى جداول هي : الخطابة، والأمثال، وسجع الكهان، والوصايا، والقصص، والأخبار المسرودة على نحو فنّي والرسائل والعهود، والوصف والمحاورة ويسمّي بعض الباحثين هذه الأنواع ماعدا الخطابة «النثر الفني» ونفضل أن نجعل خطب العرب بعض النثر الفني، أو جدولاً من جداوله العذبة وبهذا الجدول نبدأ.

# الفصل الأول
## الخطابة

### أ) مكانتها:

كان للخطابة في العصر الجاهليّ شأنٌ أيّ شأن، إلاّ أنّه ليس بين أيدينا نصوصٌ تمثّل تطوّر هذا الفنّ، وترصد انتقاله من مرحلة إلى مرحلة. والشكُّ فيما بلغنا من خطب لايدفعنا إلى إنكارها. فلقد كانت حياة العرب تقتضي ازدهار الخطابة، وتجعلها رديف الشعر الأول في ترجمة المشاعر والأفكار، ثمّ في توجيه الأحداث.

ورأى شوقي ضيف ـ وفي رأيه غلوّ ـ أنّ الخطابة كانت فوق الشعر، وأن صخب الحياة السياسية رجّح منزلة الخطيب، وشفع رأيه بقولين أحدهما قول أبي عمرو بن العلاء:

«كان الشّاعر في الجاهلية يُقَدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم. ويهابهم شاعر غيرهم. فلمّا كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مَكْسَبَةً، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر».

والثاني قول الجاحظ: «كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيّامهم. فلما كثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر».

ولك أن تستنبط من قوليْ أبي عمرو والجاحظ مااستنبط شوقي ضيف، ولك أن تعيد النظر في القولين لتجد لهما تفسيراً آخر، خلاصته أن الشعر كان أشيع من الخطابة وأنجع، وأن إسفاف فريق من الشعراء أركب الخطابة ظهر الشعر. فلو بقي الشعر في عليائه ماطاوله فن آخر. وإذا أغضيت عن القولين ـ وهما في الحقيقة قول واحد ـ ونظرت في مسلك العرب وجدت الشعراء أبرز من الخطباء، وأبعد تأثيراً في الحياة العامة. فهم رؤ ساء الوفود عند الملوك. وبهم يناط الدفاع عن المصالح، والشفاعة للأسرى،

رأي الدكتور شوقي ضيف

الشعر مقدم على الخطابة

وبألسنتهم تنعقد المنافرات، وبكلامهم الموزون تجري الألسنة. وربّما شاركهم الخطباء، فاجتمع الشاعر والخطيب على الفكرة الواحدة، فجرى لسان الخطيب بمثل ماجرى لسان الشاعر، غير أنّ كلام الخطيب يذهب أكثره، وكلام الشاعر يحفظ كلّه. وأنت تعرف من خبر المنافرة بين الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم مايُعلي الشعر على الخطابة، فقصيدة عمرو بن كلثوم «ألهت بني تغلب عن كلّ مفخرة» وقصيدة الحارث ابن حلزة وصلت إلى موضع الانعطاف في عقل الحَكَم فلوت عنقه من السير في ركاب تغلب إلى السير في ركاب بكر.

ويدّعي شوقي ضيف أن الخطيب كان يطغى على الشاعر في مواقف «ينفرد بها، إذ كان يدعو إلى السلم، وأن تضع الحرب أوزارها. أما الشاعر فلم يكن يدعو إلّا إلى الأخذ بالثأر، وإشعال نار الحرب» ويشفع رأيه بأبيات حماسية كقول ربيعة بن مقروم:

وَمَتَى تَقُمْ عِنْدَ اجْتِماعِ عَشِيرَةٍ ... خُطَباؤُنا بَيْنَ العَشِيرَةِ يُفْصَلِ

وقول أبي زُبيْد الطائيّ:

وخطيب إذا تمعَّرَتِ الأو ... جهُ يوماً في مَأقِطٍ مشهود[1]

وقول بشر بن أبي خازم:

وكنّا إذا قُلنا: هَوازنُ أقبلي ... إلى الرُّشْدِ لَمْ يَأْتِ السَّدادَ خطيبُها

ورَدّنا على هذا الادّعاء أن الاحتجاج ببيت أو أبيات لايقوم حجّة، ولايثبت دعوى، ففي الشعر الجاهلي قصائد كثيرة دعا أصحابها إلى السلام، وحسبك أن تمر بشعر الأفوه الأودي، ولقيط بن يعمر وزهير بن أبي سلمى لتلقى في الشعر أضعاف مانلقى في الخطب من الحكمة الرزان، والدعوة إلى المصالحة، فهاهو ذا مرثد الخير بن ينكف يدعو إلى مجانبة الحرب، وينفر من ثمارها المشؤومة:

ولاتجنيا حَرْباً تجرُّ عَلَيْكُما ... عواقبَها يوماً مِنَ الشَّرِّ أشأما

حذارِ، فلا تستَنْتِبُوها، فإنّها ... تغادر ذا الأنف الأشَمّ مكشّما[2]

وها هوذا العباس بن مرداس يندم على خوضه الحروب، ويبغّضها إلى الناس:

أَلَمْ ترَ أنّي كرِهْتُ الحروب ... وَأنّي نَدِمْتُ عَلى مامَضَى

وللأعشى وقيس بن زهير أبيات كثيرة تجري في هذا المضمار.

وردّنا الأخير أن الفصل بين الخطابة والشعر في العصر الجاهليّ مطلبٌ عسير، فكثيراً ماينطوي الخطيب في إهاب شاعر، وكثيراً مايتحول الخطيب إذا اشتعل حماسةً

(١) تمعرت الأوجه: تغيرت غيظاً.المأقط: موضع القتال أو المضيق في الحرب.

(٢) تستنبئوها: تبحثوا عنها.مكشم: مقطوع.

وتفجّر غضباً إلى شاعر أو راجز. ومن الشعراء الذين خطبوا وأجادوا عامر بن الطفيل، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المرّي.

ومن أشهر الخطباء الذين برعوا في الخطابة، ولم يبرعوا في الشعر عامر بن الظرب العدواني، وقُسّ بن ساعدة الإيادي، والمأمون الحارثي، وعتبة بن ربيعة خطيب قريش يوم بدر، وابن عمار الطائي خطيب مذحج، وهانىء بن قبيصة خطيب شيبان في يوم ذي قار، وقبيصة بن نعيم، وهاشم بن عبد مناف، وقيس بن خارجة.

ب) أنواع الخطب: شهد العصر الجاهلي أنواعاً من الخطب، تختلف باختلاف الدواعي التي تستوجبها، وأشهر الأنواع: خطب المنافرة، وخطب الوعظ، والخطب الحماسية الداعية إلى الحرب، وخطب الزواج، وخطب إصلاح ذات البين، والخطب التي تقال في التعزية، والتي تقال في التهنئة. ولكلّ رسومٌ وسمات، وأعلامٌ عرفوا بها.

١ ـ خطب المنافرة: «المنافرة والمفاخرة بمعنى واحد، وهي المباهاة في الجمع المحتشد بفضائل الأصل ومكارم النسب، ومحامد الخلق، وعلوّ المنزلة، وجليل الفعال. . ومن هذه المنافرات منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل حينما تنازعا الرياسة، فمضى كلٌّ واحد منهما يذكر مناقبه. وهي شبيهة بمعركة انتخابية يتنافس فيها زعيمان من زعماء السياسة للفوز بتأييد الجماهير. قال علقمة لعامر: «أنا خير منك أثراً، وأحدّ منك بصراً، وأعزّ منك نفراً، وأشرف منك ذكراً» فردّ عليه عامر: «إنّي أسمى منك سُمّة[1]، وأطول منك قمة، وأحسن منك لمّة[2]، وأجعد منك جُمة[3]، وأسرع منك رجعة، وأبعد منك همة»

فإن نظرت في الفضائل التي يعتزُّ بها الطرفان وجدت فيها خلاصة المُثل العليا، وزبدة الفضائل والمكارم. ولما كان كبشا النطاح ينتطحان على مرأى من الناس ومسمع، فهما مضطران إلى التزام الصدق، ومجانبة الادّعاء. فكأنهما يتقاضيان أمام محكمة يترأسها قاض، ويشهدها جمهور من أنصار الفريقين.

وربما أعقبت المنافرة بين الخصمين خطبة يلخّص فيها الحاكم رأيه، ولا يقبل منه الحكم مالم يشفع بالأدلّة التي ترجّح كفة على كفة، كما صنع نفيل بن عبد العزّى حين تنافر إليه عبد المطلب بن هاشم جد النبّي صلّى الله عليه وسلم، وحرب بن أمية.

(١) السمة: القرابة.

(٢) اللمة: الشعر المجاور شحمة الأذن.

(٣) الجمة: مجتمع شعر الرأس.

خاطب نفيل حرباً فقال: «ياأبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقلّ منك ملامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل صفداً[1]، وأطول منك مِذْوَداً[2]؟؟ وإنّي لأقول هذا. وإنّك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جد المريرة[3]، جَليل العشيرة. ولكنّك نافرْتَ منفِّراً» فحرب ـ على فضائله الكثيرة ـ لايصلح لمطاولة عبد المطلب ومقاواته، ولكن جدَّه العاثر صغّره أمام الكبير، وحقّره بين يدي الجليل. فخرج من المقامرة مقموراً، وتلك عاقبة المتكبرين.

٢ ـ خطب الوعظ: إذا فرغ الأعرابيّ المتبصّر من الرعي في السلم، ومن الغزو في الحرب أرسل نظره في السماء، وأعمل عقله في الحياة، وساءه أن يغفل قومه عن حقائق يهديه إليها إدراكه، فطفق يبصّرهم بها، ويعظهم وعظ المعتبر بالتجربة الحية. فجاء وعظه نظرات مفكّكة، لكنها تلتقي عند محور واحد هو مشكلة الموت والمعاناة من الضياع.

ومن أشهر الخطباء الوعّاظِ المأمونُ الحارثي الذي خطب قومه، فقال: «أرعوني أسماعكم، وأصغوا إليّ قلوبكم، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد. طمع بالأهواء الأشر[4]، وران على القلوب الكدر، وطخطخ[5] الجهل بالنظر. إنّ فيما ترى لمعتبراً لمن اعتبر. أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب.. ياأيها العقول النافرة، والقلوب النائرة أنّى تؤفكون، وعن أي سبيل تعمهون، وفي أي حيرة تهيمون، وإلى أي غاية توفضون[6]. لو كشفت الأغطية عن القلوب، وتجلت الغشاوة عن العيون، لصرّح الشكّ عن اليقين، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة».

وربما كانت خطبة قس بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ أشهر من هذه الخطبة، ولايميزها منها إلا مزجها بأبيات من الحكمة تكمل مافي الخطبة من تأملات. أمّا الموضوع فيكاد يطابق الموضوع الذي طرقه المأمون الحارثي.

٣ ـ خطب الحرب: في الحرب تغلب الحماسةُ الحكمةَ، ويطغى الغضب على الحلم، ويتبارى الخطباء والشعراء في إيراء النار. هذا يقتدح، وذاك يحتطب، والنتيجة احتراق القبائل بما تصطلي.

(١) الصفد: العطاء.
(٢) المذود: اللسان أراد هنا أفصح.
(٣) المريرة: عزة النفس.
(٤) الأشر: الفرح المرح.
(٥) طخطخ: أظلم.
(٦) توفضون: تسرعون.

خطبة المأمون الحارثي

خطبة قس بن ساعدة

وقد تخرج الخطبة من إطار الصراع بين القبائل إلى إطار الحمية القومية، فيذكّر الخطيب بالقِيَم، ويزهّد في الحياة، ويدعو إلى النزال. قال هانىء بن قبيصة الشيباني يحرّض قومه يوم ذي قار: «يامعشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور. إنّ الحذر لاينجي من القدر، وإنّ الصبر من أسباب الظفر. المنيّة ولا الدّنيّة. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور. ياآل بكر، قاتلوا فما للمنايا بُدّ».

٤ ـ خطب الزواج أو الإملاك: في هذا النمط من الخطب مظهر من رقيّ العرب، وشكل من أشكال التعبير عن تواصلهم الإنساني. وجوهره أن يُعلن الخطيب مناقب الخاطب ليظفر بالقبول من أهل المخطوبة، وربّما نهض خطيب من قوم المخطوبة فتكلّم. فيكون الكلامُ ردّاً لبقاً يؤنس الناس، ويترجم مكارم الأخلاق.

لكن هذا الضرب من الخطب لايخلو من إعنات للخطيب، وكدّ للخاطر، قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: «مايتصعّدني كلام كما تتصعّدني خطبة النكاح» ولعلّ السبب في ذلك المأزق اللحج الذي يُوضع فيه الخطيب، فالأفكار لاتخلو من مجاملة ومصانعة، ومذاهب القول محدودة بالمدح الهادف إلى الظفر بالقبول، ولذلك يتوخّى الخطيب الصدق، وسوق الفضائل. ومن أشهر الخطب المأثورة في هذا المجال خُطْبة أبي طالب في خِطْبة السيدة خديجة رضي اللّه عنها لمحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم. قال أبو طالب: «الحمد للّه الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إنّ محمد بن عبد اللّه ابن أخي من لايوازن به فتى من قريش إلّا رجح عليه برّاً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً. وإن كان في المال قلّ فإنما المال ظلّ زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعَليَّ».

أمّا الردّ فجوهُره القبولُ وإطراء الخطيب للخاطب والمخطوبة، وربّما تضمّن بعض النصح يُزجيه الأب بين يديه، وغايته توجيه ابنته وتوديعها، وتحميل الخاطب تبعة حمايتها. قال عامر بن الظرب العدواني في الردّ على خاطب ابنته صعصعة بن معاوية: «ياصعصعة إنّك جئت تشتري منّي كبدي، وأرحم ولدي عندي، منعتك أو بعتك. النكاح خير من الأيمة، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أبٌ بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألّا أجد مثلك، أفر من السرّ إلى العلانية، أنصح ابناً وأودع ضعيفاً قوياً» ثمّ أقبل عامر بن الظرب على قومه بني عدوان، فقال: «يامعشر عدوان. أخرجت

من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم. ولكن من خُطَّ له شيء جاءه. ربّ زارع لنفسه حاصد سواه..» وهي خطبة طويلة جميلة.

٥ ـ خطب إصلاح ذات البين: للبداوة سلوك وخلق تفرضهما على أبنائها، فهي تدفعهم إلى الحماسة، وترغّبهم في الفخر، وقد ينقلب تفاخر الأعراب إلى منافرة، والمنافرة إلى مشاجرة، وحينئذ يبرز العقل حكماً فَيْصلاً، يقمع مظاهر العنف، ويطفىء جذوة العجرفية، ويبيّن للمتنافرين أن الصلح أحجى. وينهض بالأمر أصحاب الحكمة الرزان، فينصحون للفريقين بالموادعة، ويزجرونهما عن المهاترة، ويدعونهما إلى جمع الشمل، ورتق الخرق قبل استفحال العداوة.

كان مرثد الخير بن ينكف قَيْلاً، وكان حدباً على عشيرته، محبّاً لصلاحهم، وكان سبيع بن الحارث، وميثم بن مثوب بن ذي رعين تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حيّيهما شرّ، فيتفانى جذماهما، فبعث إليهما مرثد، وقال: «إن التخبط وامتطاء الهجاج[1]، واستحقاب[2] اللجاج، سيقفكما على شفا هوّة، في توردها بوار الأصيلة[3]، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة.. فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ماآلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأي»[4].

٦ ـ خطب التعزية والتهنئة: من آداب الجاهلية التي أقرّها الإسلام التعزية بما يحزن، والتهنئة بما يفرح. ولمّا كانت حياة القوم قسمة بين بُؤسى ونُعمى، وترح وفرح فقد كثر كلامهم في التعزية والتهنئة.

كانوا إذا عزّوا حاولوا أن يهوّنوا من شأن الدنيا، وأن يزهّدوا في ترفها، لأنّها إلى زوال، وحاولوا أن ينفحوا الناس بالمواعظ، ويحثوهم على التزام الفضائل، لأن حسن الأحدوثة أبقى مايبقى من البشر. عزّى أكثم بن صيفي عمرو بن هند ملك الحيرة حينما قضى أخوه فقال: «إنّ أهل هذه الدار سفر، لايحلون عقد الرحال إلّا في غيرها. وقد أتاك ماليس بمردود عنك، وارتحل عنك ماليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك، ويدعك. واعلم أنّ الدنيا ثلاثة أيام: فأمسِ عظة وشاهد عدل، فجعك

(١) الهجاج: ركوب الرأس.

(٢) استحقاب: هذا مثل وهو من الحقيبة أو من الحقاب وهو بريم تشد به المرأة وسطها.

(٣) الأصيلة: الأصل.

(٤) الثأي: الإفساد والجراح.

بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته. واليوم غنيمة وصديق أتاك، ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته. وغدٌ لاتدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك. فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر. وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها. وخير من الخير معطيه، وشرّ من الشرّ فاعله».

وكانوا في التهنئة يذكرون فضل المهنَّأ، ويذكّرونه بفضل اللّه عليه، وكأنّهم بذلك يكفّونه عن الغرور، ويزجرونه عن البطر والأشر. هنّأ عبد المطلب بن هاشم سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة، فقال: «إنّ اللّه تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته.. أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لاوفد المرزئة».

ج ـ سنن الخطباء: تواضع الخطباء على رسوم يلتزمونها، وأعراف يتبعونها في أثناء التحدّث إلى الناس. ومما يميز الخطابة إلقاؤها في المحافل، والأندية التي يتقاطر إليها الناس. وهذه السنن المتبعة ترقى بفن الخطابة، وتخلع عليه ظلال الهيبة، وأبرزها أن الخطباء كانوا في المواسم يتسنّمون الرواحل، ليراهم القاصي والداني، ويلوثون على رؤوسهم العمائم، فتزيدهم وقاراً، ويشيرون في أثناء النطق بالمخاصر، والعصيّ، والقسيّ، فتبلّغهم هذه الإشارات الموزونة مواطن التأثير في نفوس القوم.

ومما يمتدح في الخطيب أن يكون جهوري الصوت، شديد العارضة، قويّ الحجة، كثير الريق، حاضر البديهة، حَسَن الالتفات، قويّ الشخصية، قادراً على إقناع الناس بما يرى أنّه الحق. وربما لجأ الخطيب إلى اصطناع الجهارة في الصوت، واصطناع السعة في الشدق، والتلاعب بالصوت تضخيماً وتفخيماً، وتوقيعاً وتنغيماً حتى يسحر السامعين بالصوت قبل أن يقنعهم بالحجة.

وأجاد بعض الخطباء في بعض الخطب إجادةً خلّدت ماقالوا، فحفظ الرواة خطبهم، وسموها بأسماء تميزها من غيرها. قال الجاحظ «ومن خطب العرب العجوز، وهي خطبة لآل رقبة، ومنها العذراء، وهي خطبة قيس بن خارجة في حرب داحس والغبراء».

ومما أخذ على الخطيب البهر والارتعاش، والعيّ والحصر، والتلجلج، والخوف من لقاء الناس، ومسّ الذَّقَن والسبال والشوارب، وكأنّهم رأوا أنّ في ذلك شططاً

وإسرافاً في الحركات المعبّرة، أو دليلاً على إنطاق الجوارح بما يعجز اللسان عن النطق به.

د ـ خصائص الخطابة: يطيب لكثير من الباحثين أن يُشكّك في كثير ممّا روي من خطب الجاهليين، لبعد العهد بين روايتها وتدوينها. ونحن لانرى في هذا البعد وفي غيره من الحجج مسوّغات كافية لإنكار هذه النصوص كلّها أو بعضها، ونذكر خصائصها ذاهبين إلى أنها إلى الصحة أقرب، وأهم هذه الخصائص:

١) القصر: فإذا قست ماروي من خطب العصر الجاهلي بما روي من خطب العصرين الإسلامي والأموي أدركت هذه الظاهرة، وهي عندنا حجة لإثبات الصحة، لا دليل على الشكّ فيها، لأنّ الحفظة نقلوا مابقي في الذهن ولم يتزيدوا، ولو أرادوا الانتحال لأطالوا.

٢) غياب المنهج: لاتجد في خطب العصر الجاهلي منهجاً واضح القسمات، وخطوات مرعيّة يلتزمها الخطيب. فمن الخطباء من كان يهجم على غرضه بلا تمهيد، ويختم كلامه بلا خاتمة تلخّص رأيه. ومنهم من يبدأ بالعبارة المألوفة (أمّا بعد) ومنهم من يجري لسانه بالفكرة الأولى التي يقذفها الخاطر غير مفتتح بهذه العبارة، أو بعبارة أخرى يلتزمها الخطباء.

٣) الاستشهاد بالشعر: لما كان الشعر أهمّ الفنون الأدبية في العصر الجاهلي فإن الخطيب كان يتوكأ على الشعر، ويناقل بينه وبين النثر، فمرة يجعل الشعر حشواً في خطبته، ومرة يجعله خاتمة لها.

٤) قصر الجملة: عني الخطباء بإيقاع الكلام، وأتقنوا تقسيمه إلى جُمل موزونة في أغلب الأحيان.

٥) الصنعة: لايخلو كلام الخطباء من سجع وازدواج وتوازن لأن هذه الظواهر تعين الخطيب على التأثير في القلوب والأسماع.

٦) بساطة الأفكار: أفكار الخطباء مجموعة من معان مقطعة، وأفكار واضحة، يعوزها الفكر العميق. وهذه الظاهرة حُجّة كافية لترجيح الصحة على الشك في نسبة الخطب إلى أصحابها.

غياب المنهج
الاستشهاد بالشعر
قصر الجملة
الصنعة
بساطة الأفكار